لا يسع المرء وهو يتجول بين قاعات معهد "دينا" الايوائي الا ان يعتصر قلبه الماً واسىً وتأسفاً، لمشاهد يجتمع فيها بنين وبنات الف بينهم العوق الشديد وقصور العقل، لا فرق بين "آية" ذات الثماني سنوات، التي تجلس على مقعد خاص، بعد ان تهرأ جلدها لطول رقودها في الفراش، وبين منذر نعمان ذي الستة عشر عاماً، والمتخلف عقلياً، وسناء تلك الطفلة الوديعة التي تداعبها "دينا" بشغف "وعمر" الذي لم يكف عن "الصياح" بين آونة واخرى، وسيف الذي لم يتوقف عن التنقل بين القاعات، وهو يؤشر بيديه نحو هذا الاتجاه وذاك المكان.

في معهد "دينا" الايوائي

عراقية تعيل ٧٥ من البنين والبنات شديدي العوق والمشرفات.. مطلقات وأرامل

مجموعة من نزلاء المعهد

بغداد/ شاكر الميام
تصوير: صبام العاني

اما "علي داود" الذي اختار الجلوس على الارض، ورأسه بين ركبته، وبين سانحة واخرى يمط فمه تارة نحو اليمين واخرى نحو اليسار ولا يسع المرء وهو بين هؤلاء الذين يبلغ عددهم ٧٥ من البنين والبنات شديدي العوق، الا ان يتلمس قسوة المجتمع على ابنائه ممن اختار لهم القدر تلك الهيئات التي تدعو الناس الاسوياء والاصحاء الى ايلائهم شيئاً من الرحمة والحنو، بدل الاهمال وتركهم فريسة لحوادث الايام وتقلبات الزمن "دينا" معهد ايوائي تديره "امرأة عراقية جليلة اتخذت من هؤلاء ابناءاً لها، تعيلهم وتطعمهم وتكسوهم وتنظفهم على مدار الـ٢٤ ساعة، بطاقة لا حدود لها وبجهد ومثابرة انسانيتين ومفعمتين بمشاعر امومة رؤوم في هذا الزمن الذي تلاشت في بعض زوايا الحياة فيه كل بواعث الشفقة ودواعي العطف بعد ان انحسر عن بعض النفوس دفق المشاعر الانسانية الجياشة لما عصفت بها الحروب والفتن وشهوة السلاح والنزوع نحو الحياة البهيمية.

ايتام.. ايتام

هم، ٧٥ فرداً جزء من كتلة اليتم التي ترهل بها جسد العراق الكبير، عراق الخير والعطاء والخبز الطافح بالعافية والثروات الهائلة، ناهيك عن كتل المعاناة الاخرى، الارامل، والمطلقات، والمتسولين والمتسولات، اليتيم، ذلك الذي حظى برعاية الرب الجليل حينما اوصى به بقوله: "واما اليتيم فلا تقهر" هذا اذا كان اليتيم سليم العقل والجسد ويتمتع بصحة وعافية، فما بالك باليتيم المتخلف عقلياً والمعاق جسدياً وفضلاً عن ذلك أصم وابكم؟ كوكبنا الذي ندب فوق اديمه، ونقتات على بعض ما يجود به من خيرات، بدا لي وكأنه شح بعطائه على هؤلاء المعاقين اليتامى، فادار لهم ظهر المجن، وضيق عليهم الخناق، فهم مهددون اليوم بين التشرد والضياع في شوارع الرعب والاستغلال البشع من قبل عصابات الارهاب التي قد تستغلهم ببشاعة لا تقل عن بشاعة افعالهم الخسيسة، اذا ما امتدت اليهم كف كريم، وقلب رحيم لانقاذهم ودفع عائلة امتهان انسانيتهم "المدى" لبت "استغاثة المرأة العراقية الجليلة" راعيتهم ومعيلتهم السيدة "انعام جواد حسن" فكانت بين هؤلاء اليتامى المعاقين تتلمس معاناتهم والامهم وقسوة الانسانية والاقدار عليهم واطلعت ميدانياً على طبيعة الحياة التي يحيونها.

قصة معهد "دينا" وبداياته في البداية تحدثت لنا السيدة "انعام" عن قصة تأسيس المعهد قائلة: تأسس المعهد في ٢٠٠٠/١/١ واسميته باسم ابنتي "دينا" التي كانت بطيئة التعلم ومصابة بعوق في يدها ولما بلغت الثامنة من عمرها قررت ان اخطو خطوة باتجاه الاطفال شديدي العوق والمتخلفين عقلياً، حباً واكراماً لها وعندما اسست المعهد لم اكن لاطمع بالكسب المادي قطعاً انما كان الدافع الرئيسي هو انساني محض يتجسد في ان يكون هناك مكان يؤوي ابنتي بعد مماتي وتضيف: انا احمل شهادة البكالوريوس في اختصاص "علم النفس" وعملت في معاهد المعاقين الرسمية لسنين عديدة، وكنت على اطلاع تام لاحتياجات المعاقين، وعلى وفق هذا الاطلاع قررت ان يؤوي المعهد شديدي العوق العقلي والجسدي، الذين يقضون حاجاتهم الجسدية تحت فراشهم، بشرط ان يكونوا غير شرسين وغير عدوانيين واوضحت: ان جميع الموجودين الان في المعهد هم من الايتام، وتلفت: بان اغلب ذوي هؤلاء اختفوا منذ سقوط النظام السابق ولم يقتصر القبول على محافظة بغداد، بل شمل جميع محافظات العراق وتقول: معهد "دينا" أول معهد إيوائي اهلي في العراق، ثم تنتهدت وتهدج صوتها حينما ذكرت ان زوجها "احد ضحايا الحرب العراقية/ الايرانية اذ استشهد في احدى وقائها ولدي ولد وبنت، ولدي طالب جامعة "دينا" تعمل بمعيتي في رعاية ابنائي الـ٧٥" واضافت: فاتني ان اذكر بان البداية كانت مع "٥٠" معاقاً، وهذا الرقم كان متغيراً باستمرار، بسبب الوفيات، فتارة يصل الى اكثر من ٦٠ واخرى يقل دون الخمسين، وان معظم المراقبات اللواتي يعملن في المعهد هن من المطلقات وارامل ليس لديهن اماكن تؤويهم فشجعتهن في المعهد، والانضواء تحت سقفه ليتخذنه سكناً لهن يأمن فيه من صروف الدهر. مام "جلال" اول من اغاث المعهد لم يتلق المعهد أي تمويل مادي من أية جهة كانت سوى الرئيس "مام جلال" وانا شخصياً أدين له بالفضل الجليل حينما مد لنا يد العون الرحيمة ومنذ سنتين والتي لولاها لما استدام عملنا، الا ان هذه الاعانة المادية الكريمة نفذت ونحن الان نشرف على الافلاس، والتيامى على شفا التشرد والضياع، ونحن نواجه الان اشكالية معقدة وصعبة للغاية بسبب نفاد رصيدنا المالي من تلك الاعانة، وضآلة ما يتبرع به بعض المحسنين والميسورين ونقول: مالك الدار ما انفك يطالبنا بين الحين والآخر بالايجار الذي تاخرنا في سداده حتى هذه اللحظة.

وكذلك لم ندفع رواتب المشرفات والعاملين في المعهد، وعدد غير قليل منهن تركن العمل لذات السبب وتؤكد ان وضع المعهد الان مزر للغاية، وتقول: نحن نعيش الان على تبرعات الاهالي من المواد الغذائية كالرز والسكر والشاي والزيت والعدس ومساحيق المنظفات والصوابين وخاصة من الجيران، فضلاً عن التبرعات بالملابس والاغطية المستعملة، والتي نقوم بخياطتها، وبترميهما وتأهيلها للاستعمال وتشدد على ان وضع المعهد يمر بمرحلة "الحراجة" ونحن بانتظار من يسمع صرخة استغاثة هؤلاء اليتامى شديد والعوق، ومعها صرختنا، وحتى المكان، بات يضيق بنا جميعاً وتوضح بالم" في الليل نفرش لهم في الممرات لأن الاسرة لا تكفي، وتقول بما يشبه الصرخة: نحن بحاجة يدعمنا لمواصلة مشوارنا الانساني مع هؤلاء "معذبو الارض" وضحايا الحروب والارهاب نحتاج الى من يمد لنا يد المساعدة والعون وتشكو قائلة: لقد تعتب حقاً، وانا بين عذابات انسانيتي وامومتي، وبين قلة حيلتي واذا ما خطفني "ملك الموت" فسيكون مصير هؤلاء المساكين الفناء او الضياع او التشرد فالى متى اظل في خضم هذا الصراع؟ وبينت: لقد بعت كل موجودات بيتي ومقتنياتي من اجل تأسيس هذا المعهد وتضيف: لا انسى ابداً ما أبداه رئيس الجمهورية الاستاذ "مام جلال" من حسن رعاية وكرم انساني تجاه المعهد وكذلك زود المعهد "بمولدة كهربائية كبيرة" ونحن نطمح بكرمة مرة اخرى لاستدامة عمل المعهد نحن نطرق بابه ثانية وبانتظار استجابة انسانية كريمة منه لا سيما وهو يدرك حتماً، وهو المناضل والمكافح ضد الديكتاتورية والاستبداد، ويستشعر احتياجات ابناء شعبه، وخاصة يتامى العراق وارامله ومطلقاته وسألناها: هل اعانتكم بعضاً من المؤسسات الدينية او الاجتماعية او السياسية؟ فقالت: ابداً لم نتلق اية اعانة من تلك المؤسسات ولا حتى منظمات دولية ذلك لأني اخشى مراجعة تلك المؤسسات التي ذكرتها لا سيما ان الوضع الامني كان مضطرباً وتستدرك قائلة: لا يفوتني ان اذكر بان نائب رئيس الجمهورية "طارق الهاشمي زارنا ذات يوم وقدم لنا اعانة مشكورة وتكشف مديرة المعهد عن المعهد لا يحتاج سوى تخصيص ميزانية حقيقية من الحكومة تؤمن حاجات المعهد الفنية واللوجستية والمادية دائمة بغية استدامة عمل المعهد وادائه لمهامه الانسانية الهادفة، لأن من يقدمون لنا المساعدة ليسوا دائميين لأن الايواء يعني معيشة كاملة في الدار التي تضم ٧٥ طالباً معاقاً و٢٠ معلمة ومراقبة.

المأويون.. والحالات المرضية

وسألناها: ماذا لو مرض احد نزلاء داركم؟ فقالت: من حسن حظنا ان مستشفى اليرموك قريب جداً من معهدنا لذا اسارع الى مراجعته، ولا يفوتني ان اذكر بان عشرة من النزلاء ماتوا خلال فصل الشتاء الفائت نتيجة اصابتهم بامراض هذا الفصل البارد وخاصة من المسنين والمسنات الذين اواهم المعهد وتستطرد فتقول: لك ان تتصور حجم المعاناة التي نتجشمها في اجراءات التسجيل والية الدفن، وتؤكد انها مهام شاقة ومضنية اوصلتني الى حد الارهاق والاجهاد وفي بعض الاحيان.

اساس المعاناة... الكهرباء والكاز

وعن المشكلات باستثناء الجانب المادي فقد ذكرت: معاناتنا سببها "الكهرباء" لأننا لسنا مؤهلين ومستعدين لشراء وقود "الكاز" الذي نحتاجه لتشغيل المولدة في حال انقطاع التيار الكهربائي ولا اخفي سراً لو قلت بان لدى المعهد مولدتين اثنتين للكهرباء، وذلك لعدم قدرتنا المالية لتوفير كميات الكاز اللازمة لتشغيلهما وخاصة في ظل العجز المادي نعانيه الان لا سيما ان سعر اللتر الواحد منه يربو على "٩٠٠ دينار" في الوقت الراهن، وبينت بانها تدفع شهرياً ما مقداره خمسة ملايين دينار لشراء مادة "الكاز" ناهيك عن الطعام والايجار والرواتب وقلنا لها: كيف استطعت جمع هؤلاء المعاقين؟ فقالت: بعد سقوط النظام السابق بادرو ذووهم الى تسجيلهم وايوائهم في المعهد، ومن محافظات النجف وكربلاء والحلة والموصل والرمادي والبصرة والكثير من هؤلاء لا يرغبون بابنائهم المعاقين ضمن الاسرة، واخرين غادروا العراق لاسباب عديدة ومنها التهجير ورموا ابنائهم المعاقين بين احضان معهدنا الحميم وتؤكد: هؤلاء امانة في عنقي، وهم بين لواعج ضميري ومشاعري، وبين واجب انساني ارتضيته لنفسي وما زلت اؤيده وعلى وفق املاءات ضميري ومشاعر الامومة واوضحت: ليس من بين هؤلاء سوى خمسة او ستة من يعاودهم اهلوهم ويدفعون اجورا هي بين ٧٥-١٠٠ الف دينار وتتساءل هل تغطي هذه الاجور متطلبات حياة وعيش هؤلاء؟ وما يحتاجون اليه من "حفاظات" وادوية وطعام؟.

ويستحمون.. ولكن

وعن آلية استحمامهم قالت: نحن نقوم باستحمامهم وتنظيفهم لأن حاجاتهم البايلوجية تتم تحت فراشهم، وحتى الكبار منهم نلبسهم "حفاظات" ونحن نبذل جهوداً كبيرة في تعليمهم من خلال الايماءات والحركات باليدين او الاصابع واحياناً باصوات علمناهم اياها، ولكن نحن الذين نقوم باطعامهم والباسهم وندخلهم الحمامات ونجري لهم عملية الاستحمام، وكل بحسب احتياجاته واضافت: البعض منهم يحتاج الى "هرس" الطعام ومن ثم اطعامه ياه بـ"السرنجة" واخرون نطعمهم بواسطة الملعقة وجماعة يعرفون كيف يتناولون الطعام وتؤكد: ليس بين هؤلاء من هو عدواني ولديه ميول شرسة، بل على العكس فانهم طيبون وهادئون الا ان عوقهم غير قابل للشفاء الا ان تعاملنا معهم منحهم شيئاً من الاستيعاب البطيء بعد ذلك التقينا المشرفة والخياطة "ايمان كاظم" التي اشادت بجهود مديرة المعهد المتميزة بالنظرة الانسانية والعاطفية الامومية واكدت على ان علاقتها بالمعاقين تتسم بالمودة وبمشاعر انسانية واضافت: احسبهم مثل اطفالي وسألناها: عن عجز المعهد عن تسديد راتبك هل تستمرين في عملك، فاجابت قائلة: نعم وسامارس عملي بذات الروحية والاندفاع وذكرت بان احد اولادها استشهد في عمل ارهابي جبان وبينت إنها امضت سنة كاملة في عملها بهذا المعهد ومضت في قولها مؤكدة ان العمل مع مديرة المعهد هو مبعث سعادتها وارتياحها لأنها تمثل لها الاخت الكبيرة الناصحة والمجربة وعدنا مرة اخرى الى مديرة المعهد لتستدرك فتقول: عملت في معهد الروابي، ومعهد المكفوفين، وصندوق الاسرة، وفي وزارة التربية ثم احلت على التقاعد ثم التقينا المعلمة "رغد جاسم" التي قالت: اقوم بمنعهم ألا يؤذي احدهم الاخر واعزز فيهم مشاعر المحبة حينما نخرجهم الى الحديقة لممارسة بعض الالعاب الرياضية والترفيهية وتقول: تعودنا عليهم وصاروا جزءاً من حياتنا لا سيما اني امضيت اربع سنوات في خدمتهم وفي مداخلة لمديرة المعهد ذكرت فيها بان ارضية الدار بحاجة الى ترميم وصيانة واستبدال "الكاشي" وان عمل المراقبات يخضع لنظام "الشفتات" والتقينا المراقبة "شيماء حميد" التي ذكرت بانها بدأت عملها في المعهد منذ ستة اشهر التي ذكرت بان طبيعة عملها في المعهد تكتنفها الراحة والانسجام وانها ام لأربع بنات، استشهد زوجها بفعل ارهابي خسيس ووجدت في المعهد فرصة لاعالتهن.

واخيراً التقينا "دينا" تلك التي اطلق اسمها على هذا المعهد وسألناها دينا.. ما عمرك؟ عمر ٢١ سنة، واعرف القراءة والكتابة تعلمتها في المدرسة وساعدتني امي في ذلك لا سيما وانا انهيت مرحلة الصف الخامس الابتدائي، لا اعرف شيئاً عن اللغة الانكليزية وهل تقرئين الصحف اليومية؟ قالت نعم: انا اقرأ الصباح والمدى واضافت: انا "اموت عليهم واحبهم، وهم يحبونني لأنني "اوكلهم واشربهم واغسلهم وانيمهم" وفي مداخلة لمديرة المعهد ذكرت فيها ان احد المقيمين في المعهد ادركته الوفاة وكان من الطائفة المسيحية وقد شاقني هذا الامر كثيراً" اجهلي في اجراءات الدفن، وبعد ان احتجزت في ثلاجة الموتى، ليوم كامل واتصالاتي بالجهات المعنية استطعت التوصل الى الطريقة الصحيحة بعد ان ساعدتني القوات متعددة الجنسيات في توفير الحماية الكاملة لاتمام مراسيم الدفن في المقبرة المخصصة الكائنة بين بغداد وخان بني سعد وعن موضوع بطاقة الاحوال الشخصية قالت: هذه معاناة اخرى تضاف الى معاناتنا المستمرة فاغلب المعاقين الذين يؤويهم المعهد ليس لديهم اية مستمسكات رسمية، وبدورنا نتوجه الى وزارة العمل والشؤون الاجتماعية الى تبني هذا الامر بغية استصدار وثائق رسمية تعرف بهم وتثبت عراقيتهم وبالتالي توثق حياتهم ومماتهم وتقول: مكثت ستة عشر يوماً في المستشفى مع هذا المريض الذي توفي اخيراً وفي اليوم الذي اخرجته من المستشفى وفي ليلته وفي انتصاف الليل دهمه الموت فكنت في حيرة من امري كيف سابقيه بين هؤلاء المعاقين، فما كان مني الا ان اهاتف رئيس المجلس البلدي الذي بعث لي بسيارة "همر" عراقية وسيارة اسعاف وبعد ذلك اتممنا الاجراءات الرسمية ونحن نحتفظ بسجلات اصولية لكل من هؤلاء النزلاء، علماً بان المعهد مسجل بشكل رسمي في وزارة العمل والشؤون الاجتماعية وحائز اجازة رسمية منها.

مام "جلال" اول من اغاث المعهد لم يتلق المعهد أي تمويل مادي من أية جهة كانت سوى الرئيس "مام جلال" وانا شخصياً أدين له بالفضل الجليل حينما مد لنا يد العون الرحيمة ومنذ سنتين والتي لولاها لما استدام عملنا، الا ان هذه الاعانة المادية الكريمة نفذت

ذكرت: معاناتنا سببها "الكهرباء" لأننا لسنا مؤهلين ومستعدين لشراء وقود "الكاز" الذي نحتاجه لتشغيل المولدة في حال انقطاع التيار الكهربائي ولا اخفي سراً لو قلت بان لدى المعهد مولدتين اثنتين للكهرباء، وذلك لعدم قدرتنا المالية لتوفير كميات الكاز اللازمة لتشغيلهما

هم، ٧٥ فرداً جزء من كتلة اليتم التي ترهل بها جسد العراق الكبير، عراق الخير والعطاء والخبز الطافح بالعافية والثروات الهائلة، ناهيك عن كتل المعاناة الاخرى، الارامل، والمطلقات، والمتسولين والمتسولات، اليتيم، ذلك الذي حظى برعاية الرب الجليل

في غرفة تناول الطعام

يتفرجون البرامج التلفزيونية